لماذا أختار الامام الحسين (عليه السلام) العراق موطنا للشهادة

الاستاذ المساعد الدكتور
هادي عبد النبي التميمي
الكلية الاسلامية الجامعة ـ النجف الاشرف

عندما قرر الامام الحسين (عليه السلام) القيام بالثورة كان قد أعدّ لكل شيء عدته، فضلا عن كونه قد حدد الوجهة التي هو متوجه اليها، اذ أنه منذ اللحظات الاولى لخروجه وقبل أن تصله رسائل أهل الكوفة صرح في أكثر من موضع أن وجهته ستكون العراق وأن محله الكوفة حيث شيعته وشيعة أبيه(عليهما السلام)، وكأي قائد عسكري محنك فانه لم يغادر صغيرة أوكبيرة الا وأخذ العدة لها، فكان ابتداء أمره وصيته لاخيه محمد بن الحنفية: ((وأما أنت يا أخي فلا عليك ان تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً عليهم ولا تخفِ عني شيئاً من أمورهم))[1]، في خطوة منه للتعرف على تفاصيل مايجري في الحجاز بغيابه .

ثم كتب وصيته إلى أخيه محمد بن الحنفية قبل خروجه إلى مكة موضحاً فيها غايته وأهداف اعتراضه والتي يمكن أن تعدّ البيان الاول للثورة الحسينية ومنها: اني لم اخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بقبول الحق[2] .

تحرك الركب الحسيني إلى مكة، سالكاً الطريق الأعظم من دون ان يتنكب عن الطريق، أو يسلك الطرق الفرعية في تحدٍ واضح للسلطة الأموية[3]، وقد تضمن ذلك الخروج العلني وإشهار المسير إلى مكة نوعاً من التعبئة للرأي العام الإسلامي[4]، إذ حرص أبو عبد الله على أن تكون ثورته جماهيرية التأثير والاستمرار برغم انه كان عارفاً بالظروف الموضوعية التي يعيشها المجتمع الإسلامي آنذاك، ويعلم ان الأمة لن تستجيب لصوته استجابة سريعة إلاّ انه أصرّ إلاّ أن يوصل انباء نهضته إلى سائر البلاد الإسلامية لايجاد جمهور لثورته سواء أكان ذلك على مستوى الاستجابة العاجلة المتمثلة في النخبة التي ضحت معه أم على مستوى من ينضم إلى جمهور الثورة فيما بعد الواقعة، وهذا الحرص من الامام يمكن ملاحظته من إعلانه عن عزمه على الثورة في البيت الحرام وفي موسم الحج حيث التجمع السنوي للمسلمين من مختلف البلدان الإسلامية وتصريحه بالدعوة إلى الشهادة والتضحية[5]، اذ لم يكن خروج الامام الحسين(عليه السلام) مع جماعته من المدينة إلى مكة فراراً من مطالبة الوالي إياه بالبيعة ليزيد كما يذكر ذلك بعض الكتّاب [6]، إذ لو كان ذلك الخروج فراراً لسلك مسلك عبد الله بن الزبير في الذهاب إلى مكة من خلال اتباعه الطرق الفرعية ليفوت على السلطة الأموية فرصة اللحاق به[7] .

ولم يكن الذهاب الى مكة والتجاءه اليها احتماءً بالبيت الحرام من الذل والارغام[٨]، ودليلنا الى ذلك النصوص الواردة عن الامام الحسين (عليه السلام) لناصحيه بالبقاء في مكة وعدم الخروج منها إلى العراق إذ كان يذكر استهداف بني أمية لشخصه، وانهم يتعقبونه في كل مكان، وأينما يكون، وانه ميت على أي حال سواء بقي في مكة أم خرج منها، وان بني أمية قد صمموا على تصفيته ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة وانه كان حريصاً ألا تنتهك حرمة الحرم الشريف بسفك الدماء فيها[٩] وهذا ليس كلام شخص خرج ليلوذ بالحرم الذي اقتنع بأن بني أمية لا يتورعون عن انتهاك قدسيته .

فلم يأتِ خروج الامام الحسين (عليه السلام) رضوخاً لحالة من الخوف وإنما أراد ان يلفت النظر المسلمين من مكة إلى قيامه ودوافعه وأهدافه، وأن يستعرض المواقف العامة للناس، ويشدّ اهتمامهم[١٠] ؛ فلاشك ان الحسين (عليه السلام) قد أصبح محطة للمعتمرين وأهل الأمصار الذين وفدوا لأداء مناسك الحج طيلة الأربعة اشهر التي أمضاها قبل مغادرة مكة ولم يُخفِ نيته بالخروج على يزيد وحكمه بدليل انه تلقى نصائح عدد من وجهاء الأمة المشفقين عليه من الخروج على يزيد مخافة قتله وفشل ثورته[١١] .

ومن ناحية أخرى مثّل خروج الحسين (عليه السلام) إلى مكة واباءه البيعة بارقة أمل لمن يرغبون في التخلص من بني أمية والسير خلف راية أهل البيت (عليهم السلام)[١٢] إذ كان العراق في هذا الوقت ملتهباً بعد أن علم أهله بهلاك معاوية وبيعة يزيد، وخروج الحسين (عليه السلام) إلى مكة رافضاً البيعة فعقدت في الكوفة الاجتماعات المناهضة للسلطة الأموية فأجتمع الكوفيون في بيت سليمان بن صرد الخزاعي[١٣] .

وقد شاركت البصرة الكوفة في عملية التحرك فالتئم اجتماع عدد من أهلها في بيت امرأة من عبد القيس يقال لها مارية بنت سعد[١٤]، وتم انتقاد سياسة معاوية في ذلك الاجتماع، ورفضت فيه ولاية يزيد، واستقرت كلمة الحاضرين على دعوة الحسين (عليه السلام) للقدوم عليهم فكتبوا إليه[١٥] ((من أجل قيادة الثورة التي قطعت شوطاً من النضج جاء في النتيجة محصلاً للمرحلة السرية وجهودها المكثفة كاطار وحيد للنضال السياسي في العهد السابق))[١٦] .

وكان أول كتاب ورد للامام الحسين (عليه السلام) في مكة لعشر ليال خلون من شهر رمضان[١٧]، ثم توالت الرسائل والكتب ووفود الكوفة والبصرة إلى الامام الحسين (عليه السلام) في مكة، فكتب الامام الحسين(عليه السلام) الى أهل البصرة كتابا جاء فيه :((أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً صلّى الله عليه وسلم على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلغ ما أُرسل به صلّى الله عليه وسلم، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحقّ الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحقّ بذلك الحقّ المستحق علينا ممن تولاه))[١٨] .

ولو نظرنا في نص الكتاب سنجد إشارة إلى ذلك الخلاف الذي حصل حول الخلافة بعد وفاة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) بين بني هاشم وسواهم، وتواترت كتب التاريخ على اختلاف مذاهب أصحابها على

نقله، وفي الكتاب قول بحق أهل البيت بخلافة النبي (صلى الله عليه وآله) ووصايته ووراثته، وهذا ما لم يتخلَّ عن التصريح به الامام علي (عليه السلام) قبل خلافته وبعدها، وصرح به الحسن (عليه السلام) بعده، وذكر الحسين (عليه السلام) ترك بني هاشم للخلاف حباً للجماعة والائتلاف .

ولعل المتمعن في الحوادث التاريخية سيجد ان الإرادة الشعبية قد أبدت مطالبتها - ولو ظاهرياً - للامام الحسين (عليه السلام) للقيام بالثورة على الحكومة القائمة، وقد ظهر ذلك جلياً من اجماع أهل الحجاز على تفضيل الحسين (عليه السلام) وخاصة بعد اعلانه عدم البيعة وقدومه إلى مكة[١٩]، ومن اجتماع أهل العراق - كوفة وبصرة - على مكاتبته ودعوته للقدوم، وقد حدد الامام الحسين (عليه السلام) نظرته للحكم ورؤيته للسلطة، ومفهومه لارادة الناس، وبيعة الجمهور من خلال رسالته التي بعثها إلى أهل الكوفة جواباً على كتبهم: ((قد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلّكم انه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله ان يجمعنا بك على الهدى والحق ... فلعمري ما الامام إلاّ العامل بالكتاب والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله))[٢٠] . وهو يوضح ان الحسين (عليه السلام) يستجيب لإرادة عامة (مقالة جُلّكم) ويفضح بطلان بيعة الحاكم يزيد وعدم أهليته لولاية المسلمين ببيان بعض الشروط الموضوعية للامام على الناس . وهو ما أكده الحسين (عليه السلام) في المدينة عندما طلب منه مروان بن الحكم مبايعة يزيد فقال له: ((إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ وعلى الإسلام السلام إذابليت الأمة براعٍ مثل يزيد .. يا مروان ! أترشدني لبيعة يزيد، ويزيد رجل فاسق))[٢١] .

ولذلك يعتقد الباحث بأن دوافع الثورة كانت قائمة، وان الحسين (عليه السلام) كان سيقوم بها حتى إذا لم تأته رسائل الكوفيين التي قد تكون عجلت بقيام الثورة لأنها تعبير عن إلقاء المسؤولية الشرعية على عاتق الحسين (عليه السلام) في الخروج على الحاكم الظالم . فضلاً عن ان السلطة الأموية لم تكن لتترك الحسين(عليه السلام) دون انتزاع البيعة منه أو قتله، وقد صرح الامام بهذه الحقيقة في كلامه مع الذين حاولوا ان يثنوه عن مسيره أو الخروج من مكة فقال: ((والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم ..))[٢٢] وفي نص آخر: ((وايم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم))[٢٣] ..

وإذا كانت الثورة قد أصبحت القرار النهائي للامام الحسين (عليه السلام)، والشخوص الى العراق لتكون الموضع الذي ستنطلق منه الثورة، فقد حرص(عليه السلام) على تهيئة الموقف السياسي في العراق قبل الوصول إليه، إذ انه أمام إلحاح أهل العراق وتوالي كتبهم ورسلهم إليه في مكة كتب إليهم يقول: ((... وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته ان يكتب اليّ بحالكم وامركم ورأيكم، فإن كتب اليّ بأنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم، اقدمعليكم وشيكاً إنشاء الله))[٢٤]. ويتبين من هذا الكتاب ان الحسين (عليه السلام) قد

أرسل من يتعرف على ما أجمع أهل الكوفة عليه، وأكد لهم انه سوف يلبي مطالبهم بالقدوم إليهم إذا كتب إليه رسوله بما يشاهده منهم، وهذا غاية ما يستطيعه للاحتراز قبل الاقبال إلى العراق[٢٥] فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة[٢٦] وارسل مولاه سليمان إلى البصرة[٢٧] .

مبررات خروج الحسين (عليه السلام) إلى العراق

قرر الامام الحسين (عليه السلام) الخروج من مكة و((لو لم يعجل بالخروج لحيل بينه وبين ذلك، ولوقع أسيراً في ايدي اعدائه ولأحدق الخطر به من كل ناحية))[٢٨] .

ولما أراد الحسين (عليه السلام) التوجه إلى العراق طاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وأحلّ احرامه وجعلها عمرة لأنه لم يتمكن من تمام الحج[٢٩]، ثم قام خطيباً فقال: ((... خط الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي ،اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيرَ لي مصرعٌ أنا لاقيه .

كأني بأوصالي تُقطّعها عُسلان[٣٠] الفلوات بين النواويس[٣١] وكربلاء فيملأن مني اكراشاً جوفاً، وأجربة سُغباً . لا محيص عن يوم خُط بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفّينا أُجور الصابرين . لن تشذ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لُحمته[٣٢] وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فاني راحلٌ مصبحاً إن شاء الله تعالى))[٣٣].

ويتبين مما تقدم وضوح الخطاب الحسيني وحزمه، الذي يمكن أن نتلمس منه أموراً متعددة منها:

- تأكيد الحسين (عليه السلام) حتمية الموت المكتوب على بني آدم، ثم اختياره لأشرف درجاته وهي الشهادة: ((وخير لي مصرع انا لاقيه))، واستعداده لوحشية أعدائه في طريقة القتل ثم الإشارة إلى معرفته بمصيره وتصوير إقباله على التضحية بأنه قدر وتوجيه إلهي ((لا محيص عن يوم خط بالقلم)) وان استجابته وطاعته لله هي تسليم العاشق لله الذي يجد في ((رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين)) .
- تأكيد الحسين (عليه السلام) على منزلة أهل البيت (عليهم السلام) على أرفع مستوى وربط هدفه بهدف النبي (صلى الله عليه وآله)، وتوجيه الناس إلى بذل الأرواح في الاستجابة لدعوتهم (أهل البيت) .
- الإشارة إلى صعوبة الطريق الذي يسلكه للجهاد والإصلاح والذي يقتضي توطين النفس على الصبر .
- وضع الناس أمام مسؤوليتهم التاريخية في الوقوف بوجه الظلم، فإما النكوص، أو الاستجابة، فإن كانت الأخيرة فالموضع موضع تضحية لابد من أن يوطن المسلم فيه نفسه على لقاء الله . ويستشف من ذلك ان الحسين (عليه السلام) قد أراد ومنذ بداية تحركه – ومع حاجته القصوى إلى التأييد – ألا يرتبط به، ولا يسير معه إلاّ المدرك لأهدافه، والواعي لمتطلبات المرحلة، والمستعد لأخطر التداعيات .

- إعلان الحسين (عليه السلام) لموعد مغادرته مكة - بعد أن اعلن وجهته - فلا يترك فرصة لمتعلل، ولا عذر لقائل بأن الحسين (عليه السلام) قد أخفى أمره . فقد ظل الامام (عليه السلام) يستخدم قاعدة الإشهار ليصل إلى أقصى حد من الانتشار الإعلامي والاجتماعي .

خرج الحسين (عليه السلام) من مكة لثماني مضين من ذي الحجة يوم الثلاثاء يوم التروية[٣٤]، وهو اليوم نفسه الذي خرج فيه مسلم بن عقيل على ابن زياد في الكوفة ثم قتل في اليوم التالي[٣٥] .

وقد جمع الحسين (عليه السلام) أصحابه الذين عزموا على الخروج معه ثم طاف بالبيت وبالصفا والمروة، حاملاً بناته واخواته على المحامل[٣٦] وأخذ طريقه نحو الكوفة .

وعظم على السلطة الأموية مغادرة الحسين (عليه السلام) مكة لأن ذلك يعني انفلات حركته من طوق الحصار الذي سعت السلطة إلى فرضه في المدينة المنورة ففشلت ثم جهدت إلى ذلك في مكة للقضاء على الحركة وهي في مهدها من خلال القضاء على قائدها باغتياله بأي طريقة من الطرق في ظروف مفتعلة، لا تعجز السلطة عن ايجادها، والقاء التهمة في ذلك على غيرها، وتغطية ذلك الفعل بألف ادعاء تدعيه، وقد تطالب بعد ذلك بدمه لاظهار نفسها بمظهر الآخذ بثأره لابعاد التهم والشبهات عنها[٣٧] .

لقد فوت خروج الحسين (عليه السلام) من مكة بذلك التوقيت المدروس الفرصة على السلطة للتخلص منه بالطريقة التي تراها، أو تطويق الثورة ومحاصرتها، وان هناك اشارات واضحة من أحاديث الحسين(عليه السلام) نفسه بأنه كان يخاف الأخذ أو القتل داخل الحرم، وقد أكد ابن عباس وجود مثل تلك المحاولات في رسالة منه إلى يزيد بن معاوية كتبها موبخاً اياه على فعله مع الامام (عليه السلام): ((وما أنسَ من الأشياء، فليست بناسٍ اطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله، ودسك إليه الرجال تغتاله، فاشخصته من حرم الله إلى الكوفة ... ثم انك الكاتب إلى ابن مرجانة ان يستقبل حسيناً بالرجال، وامرته بمعاجلته وترك مطاولته، والالحاح عليه، حتى يقتله ومن معه من بني عبد المطلب أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس))[٣٨] .

وفي هذه الرسالة دلالة واضحة على أن يزيد كان قد دسّ الرجال لاغتيال الحسين (عليه السلام) وهو في مكة، ولم تمانع السلطة الأموية عبر ممثلها في الحجاز عمرو بن سعيد باستبقائه في مكة لحين تنفيذ الاغتيال عبر عرض الأمان والبر والصلة . فلما لم ينفع ذلك استخدمت السلطة الاسلوب القمعي بمحاولة ردّه هو وركبه إلاّ ان كلتا المحاولتين فشلتا لأن الامام (عليه السلام) عرف بتلك المحاولات فخرج أولاً من مكة يوم التروية دون الانتظار لتأدية مناسك الحج، ولم يخضع لشرطة الوالي الأموي وأصر على الاستمرار في طريقه إلى الكوفة .

لقد وجد الامام الحسين (عليه السلام) ان التوجه إلى العراق هو أفضل الخيارات المطروحة، وانسبها للقيام بثورته، لذلك صرّح لابن عباس الذي طلب منه الشخوص إلى اليمن بأنه: ((لابدّ من العراق))[٣٩] .

فقد ضعفت قدرات الحجاز البشرية والاقتصادية نتيجة التفريغ المستمر لطاقاته - عبر دعم جبهات القتال والهجرة إلى الامصار - وافتقد الأهمية التجارية التي تمركزت في جزء أساسي منها في البصرة[٤٠] فضلاً عن ان أهل مكة وفيهم القرشيون ليسوا من انصاره، وليس هواهم مع بني هاشم، وأهل المدينة وإن كانوا يجلونه، وفيهم الانصار الذين جاهدوا في صفوف أبيه، فإن في المدينة عدداً كبيراً من قريش بعامة وبني أمية بخاصة، وليس في المدينة قوة تحزم أمرها خلفه، فضلاً عن ان عجز الحجاز[٤١] عن الدفاع عن نفسه قد ظهر من قبل ضد أية قوة تأتيه من الخارج[٤٢] . فالحسين (عليه السلام) لا يستطيع في ظل هذه الظروف الاعتصام في الحجاز أو الاعتماد عليه في دعم خروجه على السلطة . أما اليمن فلم تكن معقودة الولاء على أهل البيت حصراً ولا على موالاة ابناء علي، وإنما ((كان الناس بها أحزاباً وشيعاً، فشيعة ترى رأي عثمان، وأخرى ترى رأي علي))[٤٣] وفي ذلك دليل على انقسامها بين شيعة موالية للامام علي (عليه السلام) وابنائه، وأخرى موالية لبني أمية، فضلاً عن ان اليمن قد ظهر عجزها، وعجز شيعة علي فيها حين قدمت إليها قوات معاوية في خلافة الامام علي (عليه السلام)، إذ لم يقاتلوا سوى قتالاً ضعيفاً، وتخاذلوا وقالوا: لا طاقة لنا بمن جاءنا[٤٤] .

فالاتجاه إلى اليمن مع قلة وضعف الناصر أمر محفوف بالمخاطر ولاسيما أن يد السلطة قادرة على الوصول إليه متى شاءت وبقوة كبيرة .

وقد تحاشى الحسين (عليه السلام) البقاء في مكة، وحرص على صيانة حرمة بيت الله الحرام من ان ينتهكها بنو أمية بقتله، وقد بقي فيها ما ينيف على الثلاثة اشهر، اقام فيها الحجة على الأمة الإسلامية، واعلن استعداده للخروج على ظلم بني أمية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الإصلاح، فلم تجبه إلى ذلك سوى فئة قليلة سارت معه حين لم يبقَ ثمة خيار سوى الاتجاه نحو العراق، وخاصة الكوفة لأن فيها ((إرادة جماهيرية تطلب التغيير، وتستحث الامام الحسين للمبادرة إلى قيام الحركة، وكان موقع هذه الإرادة في الكوفة، تمثلت في رسائل البيعة القادمة من أهلها))[٤٥] .

وقد كان تعامل الحسين (عليه السلام) مع رسائل أهل الكوفة تعاملاً طبيعياً فلو قُرِأتْ خطابات الكوفيين والبصريين لوجد انها تمثل حالة ثورية، لو لم يستثمرها الحسين (عليه السلام) لاتُهم بالقعود والهروب عن تحمل دوره التاريخي ؛ فالعراق موطن من مواطن الشيعة ومهد للتشيع الذي وقف بوجه الحكم الأموي، وتمنى أهله زوال هذا الحكم فكاتبوا الحسن (عليه السلام)، ثم الحسين (عليه السلام) بعده، للوقوف بوجه مظالم بني أمية وذكر الحسين(عليه السلام) أثر ذلك في اتخاذه قرار التوجه إليهم بالقول: ((والله لقد حدثت نفسي باتيان الكوفة، ولقد كتب اليّ شيعتي))[٤٦] .

وفي محاورة جرت بينه وبين أحد الصحابة في الأبواء[٤٧] سأله فيها الصحابي عن وجهته قال الحسين ((العراق وشيعتي))[٤٨] .

ولم يكن الامام الحسين (عليه السلام) يفكر آنيا، بل فكر وخطط لما بعد الاستشهاد، اذ لم تكن كتابات الكوفيين إليه السبب الوحيد للاتجاه نحو شيعته في الكوفة بل لأن العراق بوضعه العام أنذاك بات يشكل أنسب أرضية اجتماعية تتنامى فيه جماهير الثورة فيما بعد الشهادة بالرغم من ان المجتمع الكوفي قد نفذ إرادة السلطة الحاكمة في قتال وقتل الامام (عليه السلام) نظراً إلى وجود شريحة واعية لقضية أهل البيت مع قلتها إلاّ انها تمثل النواة لتنامي هذا الخط مع مرور الأيام(٤٩) .

فالحسين (عليه السلام) قد وجد من الحكمة ان يختار لمصرعه أفضل الظروف الزمانية والمكانية والاجتماعية المساعدة على كشف مظلوميته، وفضح اعدائه ونشر أهدافه، فالحسين (عليه السلام) بمنطق الشهيد الفاتح كان يريد العراق، ويصرّ على التوجه إليه لأنه أفضل أرض للمصرع المختار لما ينطوي عليه من استعداد للتأثر بالحدث والتغيير نتيجة له، لأن شيعته كانوا في العراق أكثر من وجودهم في أي اقليم إسلامي آخر، ولأن العراق لم ينغلق إعلامياً ونفسياً لصالح الأمويين كما هو في الشام(٥٠) .

فإذا أضفنا لذلك ان النبي (صلى الله عليه وآله) قد ذكر موضع قتل الحسين (عليه السلام) بكربلاء(٥١) وتصريحات الحسين(عليه السلام) بأنه خرج منفذاً لقدر إلهي، وأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) له بذلك عبر رؤيا رآها(٥٢) نجد ان عوامل عديدة تضافرت في هذا الاختيار الذي لم يحبذه عدد من الصحابة الذين أوصوه بعدم الوثوق بأهل الكوفة(٥٣)، بحيث وصفت بعض المصادر الامام الحسين (عليه السلام) بأنه اغترّ برسائل الكوفيين أهل الغدر والخيانة وخرج إليهم بغير تأني واستماع لنصائح الناصحين(٥٤)، ويرد على هذا الاشكال القديم الجديد - وحسب ما قدمه الباحث من قراءة لأهداف الثورة الحسينية - بأن اتهام الكوفيين بالخيانة، والتخلي عن الحسين (عليه السلام) بعد وصوله إليهم، كان سيبقى مجرد رأي بلا دليل حتى يتحقق في الواقع، بينما كانت رسائلهم التي تعلن البيعة والولاء هي واقع ملموس(٥٥)، أو بعبارة أخرى، الولاء أمر قائم، والخيانة أمر متوقع قد يحدث أو لا يحدث .

ولم يكن بوسع أبي عبد الله (عليه السلام) أن يقف موقف المتفرج الهارب بنفسه من ساحة الوغى أو الفار بدينه إلى ساحات الاعتزال والانعزال، وهي جميعها أشكال مختلفة من الهروب والتهرب من تحمل المسؤولية، وهو مسلك فضلاً عن ضرره البليغ على الواقع في تلك اللحظة فإنه يعطي مبرراً لكل من تعرض لهذه الظروف أو ما شابهها أن يهرب بنفسه حتى يستوفي الأجل المحتوم، ويبقى في وجدان الأمة رمزاً من رموز الكهنوت الهارب من مواجهة الشيطان في أرض الواقع واللائذ بالنصوص والتبريرات(٥٦) .

وقد وضع الحسين (عليه السلام) نصب عينيه هدف التضحية والشهادة(٥٧) لايقاظ الأمة من رقدتها المميتة، وتجديد روح الجهاد ومقاومة الفساد والانحراف، ولتبقى هذه الروح سارية المفعول في حياة الأمة بكل أجيالها وان هذا الهدف وذلك التصميم لديه لم تبعثه رسائل أهل الكوفة، وإنما الباعث هو الشعور

بالمسؤولية أمام الله والإسلام والأمة، لأنه تكليف رباني اندفع الامام للقيام به وامتثاله[٥٨] .

إن الحسين (عليه السلام) كان يعلم انه لابد من فدية ضخمة، فدية تتوهج بالدم وكان هو الوحيد الذي يملك ان يتقدم كفدية تهز الضمير شبه الميت في قلب الأمة . ان الأمر هنا ليس حنكة سياسية وليس غفلة سياسية، ليس واقعية رومانتيكية، انه أمر واضح تماماً يرتفع عن مستوى الغفلة أو الخيال، هو موقف أذكى واشرف رجل في عصره يُقدّم نفسه ليوغل فيه أعداء القيم العليا ما شاء لهم انحدارهم كآخر ما يستطيع ان يصل إليه بشر، فتكون الصرخة التي توقظ ضميراً خرّبوه بكل الوسائل[٥٩] .

وحينما تبرز أخلاقية الهزيمة وتترسخ وتتعمق تتحول كل محاولة جدية لمقابلة الظلم والظالمين إلى نوع من السفك والقتل في نظر المثبطين والمجمدين، هذه الأخلاقية التي يريد الامام الحسين (عليه السلام) ان يحولها إلى أخلاقية التضحية والإرادة، إلى الأخلاقية الإسلامية الصحيحة التي تمكن الإنسان المسلم من ان يقف موقفه الايجابي والسلبي على وفق ما تقرره الشريعة الإسلامية ايجاباً وسلباً، وفي عملية التحويل هذه كان الامام الحسين يواجه أدق مراحل عمله[٦٠]، وكان يحاول أن يخلق ردود الفعل المناسبة لكي يتحرك، وكان من الأساليب التي اتخذها الامام الحسين (عليه السلام) انه حشد كل القوى والامكانيات، فلم يكتفِ بأن يعرّض نفسه للقتل عسى أن تقول اخلاقية الهزيمة: (إنه شخص حاول أن يطلب سلطاناً فقُتل)، بل أراد أن يعرّض أولاده وأهله للقتل، ونساءه للسبي[٦١]، أراد أن يجمع على نفسه كل ما يمكن أن يجتمع على إنسان من مصائب وتضحيات وآلام لأن أخلاقية الهزيمة مهما شككت في مشروعية أن يخرج إنسان للقتل فهي لا تشكك في ان هذا العمل الفظيع الذي قامت به جيوش بني أمية، .. ضد بقية النبوة لم يكن عملاً صحيحاً على كل المقاييس، وبكل الاعتبارات، كان لابد للامام الحسين (عليه السلام) من ان يُدخل في المعركة دمه وأولاده وأطفاله ونساءه وحريمه وكل الاعتبارات العاطفية ... لكي يسد على أخلاقية الهزيمة كل منفذ، وكل طريق إلى التعبير عن هزيمتها وعن نوع من أنواع الاحتجاج على هذا العمل لكي يهز بذلك ضمير ذلك الإنسان المسلم المهزوز الذي تميعت إرادته[٦٢] .

ويضاف لذلك ان الحسين (عليه السلام) قد يكون رأى في وجود العائلة معه اكمالاً لما سيبدأ هو من ثورة إذ سيقع على عاتقها جزء لا يستهان به من ديمومة الثورة، فقد كان يمكن للسلطة الأموية ان تشيع براءتها من قتل الامام الحسين (عليه السلام) إلاّ ان اصطحابه لعائلته معه ومقتله، وسبي العائلة بالصورة التي نقلها المؤرخون لم تدع أي مجال للسلطة الأموية للتبرؤ من قتله . ولاسيما أن السبايا قاموا بعمل دعائي ضاهى أجهزة الدعاية الأموية، بل تفوق عليها في شرح وقائع المأساة في الأمكنة التي حلّ فيها الاسرى مبطلين زيف الدعاية الأموية في ان هذا السبي من الخوارج على السلطة الأموية، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار علم الامام الحسين (عليه السلام) بالمصير الذي سيؤول إليه لتبين لنا صواب الإجراء الذي اتخذه الامام الحسين(عليه السلام) باصطحابه النساء والأطفال معه في سيره إلى كربلاء .

ولا شك في أن الامام الحسين (عليه السلام) قد خاف ان ينكل بنسائه[٦٣] وأطفاله أو يتم إيذاءهم وأسرهم للضغط عليه في حال قيامه بالثورة[٦٤]، ((ولم يخطيء الحسين حين أبى ان يترك أهل بيته بالحجاز، فلم يكن يأمن ان يأخذهم يزيد بمسيره هو إلى العراق))[٦٥] ويجبره بذلك على الاستسلام[٦٦].

هوامش البحث

(١) ابن اعثم، الفتوح، ٢١/٥، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٢٧٢/١، شريفي، موسوعة كلمات الامام الحسين، ص٢٨٩ .

(٢) ينظر بتفاوت في الألفاظ: ابن اعثم، الفتوح، ٢١/٥، ابن اعثم، مقتل الحسين، ص٣٢، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٢٧٣/١، القزويني، الوثائق الرسمية، ص٤٦، شريفي، موسوعة كلمات الامام الحسين، ص٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) الطبري، تاريخ، ١٨٢/٦، ابن اعثم، الفتوح، ٢٢/٥، ابن اعثم، مقتل الحسين، ص٣٢ - ٣٣، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣٧٦/٤، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٢٧٣/١، شريفي، موسوعة كلمات الامام الحسين، ص٢٩٩.

(٤) ينظر: جعفر، صادق، المشروع الاستراتيجي للنبي وأوصيائه (عليهم السلام)، ط بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص٢٤٨ .

(٥) الهديبي، قراءات في بيانات الثورة، ص١٥٤ .

(٦) حسين، الفتنة الكبرى (علي وبنوه)، ٢٣٧/٢، غنيم، الثورات العلوية، ص١٥١، الحوفي، أدب السياسة، ص٤٠ .

(٧) الطبري، تاريخ، ١٧٦/٦ .

(٨) يوسف، سيد شباب أهل الجنة، ص٤٢٧ .

(٩) ينظر: أبو مخنف، مقتل الحسين، ص٦٧، البلاذري، انساب الاشراف، ٣٧٥/٣ ،ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٣/٨ .

(١٠) جعفر، المشروع الاستراتيجي، ص٢٥٠ .

(١١) منهم: عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمر، عمر بن عبد الرحمن المخزومي، وزرارة بن صالح، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ينظر: البلاذري، انساب الاشراف،٣٧٣/٣، الدينوري، الأخبارالطوال، ص٢٤٣، الطبري، استشهاد الحسين، ص٧٤ .

(١٢) النفيس، على خطى الحسين، ص٩٣ .

(١٣) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص١٥، الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٢٩، الطبري، تاريخ، ١٨٢/٦، ابن اعثم، الفتوح، ٢٧/٥، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٢٨٢/١ .

(١٤) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص١٧ - ١٨، الطبري، تاريخ، ١٨٣/٦، ابن الأثير، الكامل، ٣٨٦/٣ .

(١٥) ينظر فيما كتبه أهل الكوفة والبصرة إليه (عليه السلام): أبو مخنف، مقتل الحسين، ص١٥- ١٧، الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٢٩، الطبري، تاريخ، ١٨٢/٦ - ١٨٣، ابن اعثم، الفتوح، ٢٧/٥ - ٢٩، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٢٨٢/١ - ٢٨٣.

(١٦) بيضون، من دولة عمر، ص١٨٥ .

(١٧) البلاذري، انساب الاشراف، ٣٧٠/٣ .

(١٨) الطبري، تاريخ، ١٨٥/٦ - ١٨٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٥٨/٨ .

(١٩) الطبري، تاريخ، ١٨٢/٦ .

(٢٠) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص١٧، الطبري، تاريخ، ١٨٣/٦، ابن اعثم، الفتوح، ٣٠/٥ - ٣١، ابن اعثم، مقتل الحسين، ص٤٢، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٢٨٤/١، ابن الأثير، الكامل، ٣٨٥/٣ - ٣٨٦ .

(٢١) ينظر بتفاوت في الألفاظ: ابن اعثم، الفتوح، ١٧/٥، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٢٦٨/١، ابن طاووس، اللهوف، ص١٧ .

(٢٢) ابن الأثير، الكامل، ٤٠١/٣ .

(٢٣) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص٦٧، الطبري، تاريخ، ٢٠٣/٦، ابن اعثم، الفتوح، ٦٧/٥، ابن اعثم، مقتل الحسين، ص٨٣، الخوارزمي، مقتل الحسين، ص٣١٢، ابن الأثير، الكامل، ٤٠٠/٣ .

(٢٤) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص١٧، الطبري، استشهاد الحسين، ص٤٥، ابن الأثير، الكامل، ٣٨٦/٣ .

(٢٥) لاسيما وان الكوفيين كتبوا إليه: ((ولو قد بلغنا انك قد أقبلت إلينا، اخرجناه ﴿أي الوالي﴾ حتى نلحقه بالشام)) . الطبري، تاريخ، ١٨٣/٦ .

(٢٦) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص١٩، ابن خياط، تاريخ، ص١٤٣، ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ١٨٢/٢، البلاذري، انساب الاشراف، ٣٧٠/٣، الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٣٠، اليعقوبي، تاريخ، ١٦٩/٢، الطبري، تاريخ، ١٨٤/٦، ابن اعثم، الفتوح، ٣١/٥، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣٧٧/٤، ابن الأثير، الكامل، ٣٨٦/٣ .

(٢٧) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص٢٤،، الطبري، استشهاد الحسين، ص٤٨، ابن طاووس، اللهوف، ص٢٥ .

(٢٨) عبد العليم، سيدنا الامام الحسين، ص٨٣ .

(٢٩) الشيخ المفيد، الارشاد، ص٣١٨ .

(٣٠) جمع عسل وهو الذئب والثعلب . ابن منظور، لسان العرب، مادة عسل .

(٣١) النّاووسة: من قرى هيت . ياقوت، معجم البلدان، ٢٥٤/٥ .

(٣٢) اللُحمة: الشابك من النسب . ابن منظور، لسان العرب، مادة لحم .

(٣٣) ابن طاووس، اللهوف، ص٣٩ .

(٣٤) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص٦١، البلاذري، انساب الاشراف ،٣٧١/٣، الطبري، تاريخ ،٢٠١/٦، ابن اعثم، الفتوح، ٦٩/٥، المسعودي، مروج الذهب،٢٥٦/٣، الشيخ المفيد، الارشاد، ص٣١٨، النويري، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦٦/٨ .

(٣٥) البلاذري، انساب الاشراف، ٣٧١/٣، الطبري، استشهاد الحسين، ص٧١ .

(٣٦) ابن اعثم، الفتوح، ٦٩/٥، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٣١٧/١ .

(٣٧) الطبسي، محمد جواد، وقائع الطريق من مكة إلى كربلاء، ط قم، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢٨/٣ .

(٣٨) اليعقوبي، تاريخ، ١٧٣/٢ - ١٧٤ . وينظر: عويس، شهيد كربلاء، ص١٤٧ - ١٤٨ .

(٣٩) الخوارزمي، مقتل الحسين، ٣١٠/١ .

(٤٠) بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، ص٢٥٥ .

(٤١) كدليل على ذلك من مقتل عثمان بايدي عدد قليل من ثوار الأمصار الإسلامية، دون أن تكون في يده قوة عسكرية كافية لردهم .

ينظر: ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ٣٥/١ - ٣٦، البلاذري، انساب الاشراف، ١٧٤/٦ .

(٤٢) الشريف، دور الحجاز، ص٤٢١ .

(٤٣) الثقفي، الغارات، ٤٣٣/٢ .

(٤٤) الثقفي، الغارات، ٤٢٥/٢، الشريف، دور الحجاز، ص٤٢١ .

(٤٥) النفيس، على خطى الحسين، ص٩٤ .

(٤٦) الطبري، تاريخ، ٢٠٢/٦ .

(٤٧) قرية من أعمال المدينة المنورة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، ياقوت، معجم البلدان، ٧٩/١ .

(٤٨) ابن عساكر، ترجمة ريحانة رسول الله، ص٢٠١ .

(٤٩) الهدييي، قراءات في بيانات الثورة، ص١٦٩ .

(٥٠) الطبسي، وقائع الطريق، ص١٩ - ٢٠ .

(٥١) ينظر: الشيخ المفيد، الارشاد، ص٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٥٢) أبو مخنف، مقتل الحسين، ص٦٩، ابن الأثير، الكامل، ٤٠٢/٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦٣/٨ .

(٥٣) جاء ذلك على لسان عبد الله بن عباس، والمسور بن مخرمة، وبكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن جعفر، وعبد اللن بن مطيع وغيرهم . ينظر: الطبري، تاريخ، ٢٠٢/٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦٢/٨ - ١٦٣ .

(٥٤) ينظر: السيد، سيرة آل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ص٣٢٥، الجبري، حوار مع الشيعة، ص٢٤٨، شاه، العقائد الشيعية، ص٧٢

(٥٥) ينظر: جعفر، المشروع الاستراتيجي، ص٢٥٣ .

(٥٦) النفيس، على خطى الحسين، ص٩٤ .

(٥٧) لم يكف الحسين (عليه السلام) عن التصريح بأنه مقتول لا محالة عند وصوله إلى العراق وقد استقرأ مصيره عدد من الصحابة أيضاً كابن عباس وعبد الله بن عمر، ينظر: البلاذري، انساب الاشراف، ٢٧٥/٣، الخوارزمي، مقتل الحسين، ٣١١/١.

(٥٨) الهدييي، قراءات في بيانات الثورة، ص١٦٩ .

(٥٩) صالح، اليمين واليسار، ص١٦٢ .

(٦٠) الصدر، الحسين يكتب، ص٨٦ - ٨٧ .

(٦١) رد الحسين (عليه السلام) على مَن ساءل عن حمله للنساء معه بالقول: ((ان الله قد شاء ان يراهُنّ سبايا)) . ابن طاووس، اللهوف، ص٤١ .

(٦٢) الصدر، الحسين يكتب، ص١٠٩ - ١١٠ .

(٦٣) ينظر على سبيل المثال ما فعله الامويون مع زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي المتهم بالتشيع للامام علي (عليه السلام) عندما سجنوها حتى قبضوا على زوجها . ابن الاثير، اسد الغابة، ١٠١/٤ .

(٦٤) ذكر ابن طاووس: انه لو تركهن (عليه السلام) بالحجاز أو غيرها من البلاد، كان يزيد ... قد ينفذ ليأخذهن إليه ويصنع بهن من الاستئصال وسوء الاعمال ما يمنع الحسين (عليه السلام) من الجهاد والشهادة ويمتنع (عليه السلام) - بأخذ يزيد بن معاوية لهن - عن مقامات السعادة . اللهوف، ص٥٣ .

(٦٥) حسين، الفتنة الكبرى (علي وبنوه)، ٢٣٩/٢ .

(٦٦) الشريف، دور الحجاز، ص٤٢٢ .